

قضية الطبع والصناعة عند أبي حيان التوحيدي

كتاب (الإمتاع والمؤانسة) نموذجاً

أ. بوعجاجة سامية^(*)

إن أول ما يتبادر إلى الذهن ويحير العقل، حقيقة التوحيدي المفكر والأديب، أكان ناقداً أم لا؟

فهذا الكاتب الذي خاض في الفلسفة ومشكلاتها، ودرس موضوعات الفكر والمنطق بتشعباتها، وجال في قضايا الشريعة والسياسة وأحوال الناس والمجتمعات - أهو قادر على أن يتفرغ لمسائل الأدب وموضوعاته المتباينة ومباحثه المتنوعة؟ وأن يعرض النصوص الأدبية على طاولة البحث بالشرح والتحليل، ويبسط مسيرة حياة الشعراء والأدباء، ويقدمها في ضوء ما سمعه وما فهمه وما انطبع في ذهنه عنها إلى غير ذلك مما استرعى اهتمامه وأثار خياله في ذلك العصر الموسوم بالنهضة العلمية والأدبية؟

المؤكد في كل هذا أن التوحيدي كان أدبياً ذواقة على اطلاع بالحركة النقدية، وعلى علم برجالاتها وأعلامها المبدعين، تهفو نفسه للكلمة الجميلة والعبارة المشرقة/ "وكان مهياً بحكم ذلك الذوق النافذ والاطلاع الواسع ليكون في طليعة النقاد" ^(١).

ولعل كتابه "الإمتاع والمؤانسة" يدل على حسن استيعابه الفكري ويبرز حسه الفني العالي بالنص الأدبي شعره ونثره، ولكن قبل ذلك من هو التوحيدي؟

(*) أستاذة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم الأدب العربي - جامعة بسكرة - الجزائر.

أبو حيان التوحيدي بين توهج العقل وإهمال معاصريه:

حينما تعرض ياقوت الحموي في معجمه للتعريف بحياة التوحيدي كان بشهادة الدارسين والمؤرخين للأدب من أوائل من تحدثوا عن حياته، وأمطوا اللثام عن جوانب خفية من شخصيته؛ إذ سلط عليه الضوء بالبسط والتحليل، فقال: "فهو شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء" (٢).

وقد أثار التوحيدي جدلاً كبيراً بين الدارسين حول حياته وعام مولده ووفاته، وسبب تسميته بهذا الاسم ومكان ولادته. فهناك من نسب لقب التوحيدي إلى نوع من التمر، في حين ألحقه بعضهم بعقيدة المعتزلة القائمة على التوحيد، وفريق آخر يختلف في مكان الولادة فيرى أنه نيسابوري أو واسطي أو شيرازي. عرفه السيوطي فقال هو: "علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي بالحاء المهملة نسبة إلى نوع من التمر، وقال شيخ الإسلام ابن حجر: يحتمل أن يكون إلى التوحيد الذي هو الدين؛ فإن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد. شيرازي الأصل وقيل: نيسابوري..." (٣).

ورجح بعضهم ولادته ببغداد عام ٣١٠ هـ، ووفاته سنة ٤١٤ هـ. لكن الحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان أن التوحيدي قد قاسى في حياته الأمرين، وعاش هناك في ذلك الوسط البغدادي المتأكل المتوهج بأنوار العقل وإشراق المعرفة، المنفتح على كل وافد دخيل، المتفاعل مع كل جديد جميل - يرى بعين دامعة وقلب مفجوع قعوده بين الوراقة والكتابة لا يكاد ينال من كده وشقائه إلا الأجر الزهيد والإهمال الشديد، في المقابل تفتح الدنيا ذراعيها لأولئك المحظوظين من أصحاب العقول الضعيفة والأفهام البليدة والمعارف الهزيلة والأفكار السقيمة؛ يراهم يرتقون ويصعدون حتى يلامسون عنان

السماء، ينالون العطف والحظوة عند الحكام والأمراء، يغدقون عليهم بالعطايا ويدنونهم من مجالسهم.

أما هو فقد شقى بالحياة وشقيت به، فامتألت نفسه حزنا واطمأن إلى "جده العاثر، وحظه المنكود، فلو كان رجلا مجدودا في دنياه لتلفت الناس إليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقيا محروما فانصرفوا عنه، وأغفلوا أمره" (٤).

وقد أحس هذا الكاتب العاثر الحظ منذ الوهلة الأولى بتعاسته حينما قطع مسافات وجاب أقطارا، تاركا وراءه بغداد وعمله المضني "حرفة الوراقة" ملتجأ إلى دار الإمارة بخراسان قاصدا "ابن العميد" ثم "الصاحب بن عباد" الوزيرين المعروفين في دنيا الجاه والكتابة، فرداه خائبا، وصداه عن بلوغ آماله، الأمر الذي دفعه إلى تأليف رسالة في تلبيها تسمى برسالة "نم الوزيرين".

وقد اشتعلت نفسه حقدا على الدنيا وتغيظا وكرها للناس الذين يزدرون الكرام، ويصدون أصحاب المواهب الأذكياء، يتوددون للنمام، ويقربون منهم أصحاب العقول البليدة. وقد وصف سوء حاله ومآله لصديقه أبي بكر القومسي فقال: "ولقد استولى علي الحرف وتمكن مني نكد الزمان إلى الحد الذي لا أسترزق مع صحة نقلي وتقيد خطي وتزويق نسخي وسلامته من التصحيف والتحريف بمثل ما يسترزق البليد الذي ينسخ النسخ، ويمسخ الأصل والفرع.." (٥).

أحس أبو حيان إذن بأن مكانه ليس في وظيفة أجرها زهيد (الوراقة) وبين أناس شغلهم الشاغل النسخ والتقيد (الوراقين)، فما يملكه من نكاء وقاد وفطنة وثابة وطموح جامح كفيلا بأن توصله إلى مراتب كبيرة، ودرجات في الدولة جليلة؛ ولأن الدهر قد بلغ هذه الدرجة من السوء، كما أن الناس يكاد

العيش بينهم يصير ناراً تلتهب أواراً، ولأن الشريف الحر يعاني الاغتراب ويشكو الفاقة والحرمان - فلا أجمل من أن يطوى ذكره قبل أوان رحيله، ولا أقبح من أن يترك في دنيا بهذه الفظاعة، وأناس بهذا اللؤم والدناءة، ما ألفه من كتب ونشره من صحف، وصاحبها لم يأبه لوجوده ولا رعبت حرمة؛ لذلك يجمع كتبه في شيخوخته ويضرم النار فيها، ولمّا ينتقده صديق له، وسيتعظم جرمه الذي ارتكبه بحق عقله، رد عليه بقوله: "وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد؟ ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة" (٦).

إن كرهه لعالم الأحياء وفي المقابل احتقار الناس له وعدم اهتمامهم بعقريته هي ما أجهزت على كتبه في تلك الحادثة الشنيعة، وأنت على حصاد عمر من العطاء المتواصل والنشاط الفكري الدائب، ولولا حظ الاستثناء الذي حفظ بعضاً من كتبه، لكانت النار قد التهمت عقله ومحت ذكره من سجل الخالدين.

مؤلفاته:

عدّ ياقوت الحموي للتوحيدي سبعة عشر كتاباً، هي:

- رسالة الصديق والصدّاقة.
- كتاب الرد على ابن جني في شعر المتنبي.
- الإمتاع والمؤانسة "جزءان".
- الإشارات الإلهية "جزءان".
- كتاب الزلفة.
- المقابسة "المقابسات".

- كتاب رياض العارفين.
- كتاب تقريب الجاحظ.
- ذم الوزيرين.
- كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي.
- كتاب الرسالة في صلات الفقهاء في المناظرة.
- الرسالة البغدادية.
- الرسالة في أخبار الصوفية.
- الرسالة في الحنين إلى الأوطان.
- كتاب البصائر (عشر مجلدات).
- المحاضرات والمناظرات (٧)

ولم يبق من هذه الأعمال، كتب مطبوعة ومنشورة إلا ما يلي:

"الصدقة والصديق"، "المقابسات"، "الإشارات الإلهية"، "البصائر والذخائر"، "الهوامل والشوامل"، "مثالب الوزيرين"، "الإمتاع والمؤانسة" وهذا الكتاب الأخير هو الذي جعلته مجال دراستي المتواضعة.

ويعد كتاب "الإمتاع والمؤانسة" من الكتب الأدبية القيمة التي ألفت إبان القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس الهجري (٨).

وقبل التعرض لهذا الموضوع النقدي، بودي أن أتحدث عن الكتاب ودواعي تأليفه؛ فقد شاعت الأقدار أن تكون لعودة الكاتب من سفره إلى خراسان خائباً، قافلاً إلى بغداد صفر اليدين، يضاف إليها ما تعرض له منزله ومتاعه من السلب والنهب - فرصة ذهبية اغتتمها أبو الوفاء المهندس في التوسط لدى الوزير ابن سعدان حتى ينضم التوحيدي إلى مجلسه العلمي.

وهو مجلس شبيه بالموائد المستديرة في أيامنا، إذ تجتمع فيه نخبة من العلماء النابهين الأذكياء، يتناقشون في مختلف القضايا العلمية والشؤون الفكرية والأحوال اليومية.

ولم يكن مجلس الوزير إلا صورة مصغرة تدل على اهتمام وزراء وأمرأ ذاك الزمان - وبخاصة بني بويه - بالمناقشات الفكرية والمطارات العقلية والخوض في المسائل الفقهية والألوان الأدبية والقضايا اللغوية النحوية، ومحاولة خلق جو من الاتصال والاحتكاك بالعلماء فيما بينهم، وبين أصحاب السلطة والقرار. "لقد كان ذلك العصر عصر الندوات، ندوة عضد الدولة بن بويه في شيراز، وندوة ابن العميد في الري، وندوة الصاحب بن عباد في أصبهان، وندوة الوزير المهلب في بغداد، وقد سبقها في بغداد ندوة ابن سعدان هذا الذي وزر لضمصام الدولة لمدة ثلاث سنوات على وجه التقريب" (٩).

ولا شك أن الوزير كان محظوظا بهذا الوافد الجديد الذي انضم إلى مجلسه، ومن خلاله حظينا نحن بهذه الأمسيات الفكرية والسهرات العلمية التي إن دلت على شيء - فإنما دلت على المستوى التقني العالي، والرقى الفكرى الكبير، الذي بلغه العرب أيام الازدهار الحضارى للأمة الإسلامية. المهم أن الكتاب أهده التوحيدي إلى صديقه أبي الوفاء المهندس البوزجاني (وكان من علماء زمانه، وقد برع خاصة في علمى الرياضيات والهندسة).

أما عن سبب تسمية الكتاب بهذا الاسم (الإمتاع والمؤانسة)، فقد كشف الوزير في مبدأ ليلته الأولى رغبته الملحة في المحادثة والتأنيس، وإيضاح ما غمض من القضايا والمسائل التي تبسط في كل مجلس؛ "ولذلك تأقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس، ولأتعرف منك أشياء كثيرة

مختلفة تردد في نفسي على مر الزمان، لا أحصيتها لك في هذا الوقت، لكني أنثرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يسنح ويعرض" (١٠).

والكتاب كما يستفاد من عنوانه على جانب كبير من الجمالية والإبداعية؛ "فهو يمتع قارئه بما حوى من أدب وعلم، ويؤنسه بما ضم من طرف وحوار" (١١).

وهو مجموعة من المجالس أو المحاضرات ألقيت طيلة أربعين ليلة، في مختلف المسائل والموضوعات.

ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء، وقد طبع عدة مرات بالقاهرة، وهذه النسخة التي بين أيدينا حققها الأستاذان: أحمد أمين، وأحمد الزين.

نجد في الكتاب قضايا نقدية لمسها الكاتب فعرض لها، كقضية اللفظ والمعنى، والبلاغة والأسلوب، والشعر والنثر، والطبع والصناعة.. فيا ترى ما المعيار الذي يضبط الصياغة الشعرية: الطبع أم الصناعة أم كليهما معا؟ وما مفهوم كل واحد منهما؟

إن الحياة مليئة بالتناقضات، زاخرة بالحوادث والمشكلات، والشاعر كيان مرهف تتدفق في قلبه المشاعر، وتتأجج في نفسه الحسرات، فلا يملك أمام هذا السيل الجارف من طوفان التعابير والإيحاءات إلا أن ينطق حتى يضع بين أيدينا ذاته الجميلة، وروحه المرهفة.. هكذا الشعر — بلا شك — تعبير عن الحياة ونقل أمين لها.

والمطبوع شاعر ملهم يقف أمام اللحظة الشعرية صافي المزاج مرتاح البال، صحيح الفطرة، نقي العقل، يتلقى المشاعر في هيئة أبيات تتنال عليه انثيالاً، كأنما يتلقى كلمات من السماء، فإذا انتهت القصيدة أخرجها للناس كما مخضها كيانه وعقله، يتركها كما هي بغثها وغثيها؛ لأنها وليدة اللحظة، بنت الفطرة، شأنها في ذلك شأن الجنين الذي يولد ويتشكل كما

أرادته يد الإله؛ فيخلق ذكرا أو أنثى، جميلا أو قبيحا، هذا إجمالا موقف المطبوعين.

أما أصحاب الصناعة - ومن يؤيدونهم - لا يوافقونهم الرأي، وإن كان الرأي القائل بأن الشعر إلهام منبعه الفطرة صحيح؛ مع ذلك فالشعر كيان كأبي وجود آخر يحتاج إلى دواعي الحياة وأسباب العيش ليكبر وينمو. فالطفل يكون صبيبا ضعيفا ثم يكبر فيصير رجلا قويا، ولن يتسنى له ذلك دون الرعاية والحنان وإحاطته بكل ضروريات الحياة.

القصيدة أيضا جنين في طور التشكل، والشاعر وحده من بيده مفتاح تحديد نوعية هذا التشكل، عليه أن يمارس الفعل بكل كيانه وإحساساته دون إغفال عقله الممحص وتجربته القيمة ونكاته الواعي، فكم من قصيدة جميلة المنبت والفطرة لم تجد الرعاية والنقاف فتأكلت ومات ذكرها بين الناس، في حين نجد قصيدة أقل منها جمالا غير أنها باجتهاد الشاعر وطول دربته شاعت بين الناس وارتفع مقام صاحبها.

وبين دعاة الطبع والتكلف يبدو أن القضية شغلت حيزا مهما في الدراسات النقدية، وأول من يطالعنا في هذا المجال "بشر بن المعتز" ففي صحيفته الشهيرة الواردة في البيان والعمدة والصناعتين، يحث هذا الناقد الشاعر على تهيئة الأجواء المناسبة للتشكل الشعري، فراحة البال وصحة الطبع عوامل يحتاجها كل أديب حتى ينشأ النص وتبرز جماليته، أما التوعر والتعقيد والتكلف من أسباب قتل النص ومحو جاذبيته. يقول: "خذ من نفسك ساعة لنشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها لك؛ فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرًا، وأشرف حسنا .. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاوله والمجاهدة والتكلف والمعاودة .. فإن النفس لا تجود بمكنونها، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود مع الرغبة والمحبة" (١٢).

وفي معرض رده عن الشعبية، التي راحت تطعن في فصاحة العرب وبلاغتها؛ محاولة الهدم بمعاولها بياناً منذ الأزل قائماً، دحض الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) هذه الفكرة، موضحاً بالبرهان أن كلام العرب عن فطرة وسجية لم يتكلفوه أو يماثلوا فيه بلاغات أخرى؛ لأنهم ببساطة أميون، حياتهم بدوية، سكناهم الصحراء موئل الفصاحة والنقاء " وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة ... وكانوا أميين لا يكتبون. ومطبوعين لا يتكلمون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر .. وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من قبله فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب" (١٣).

وسرعان ما ابتعد النص الأدبي عن واديه الدافق، وأرضه اليانعة وسمائه الصافية على أيدي "أصحاب البديع" الذين راحوا يشحنونه بألوان زخرفية وأشكال فنية محتفين بالطباقات والكنائيات، معبأ بأسلوب المبالغة وتوليد المعاني والأفكار الفلسفية.

ويعد أبو تمام الشاعر المتوفي سنة (٢٣٢هـ) زعيماً لمدرسة البديع، وفي هذا السياق ألف ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) كتاباً بهذا الاسم "البديع" عرف فيه بهذا اللون الفني وأكد عروبه.

وفي كتاب "الوساطة" للقاضي الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) بين أن القصيدة الجميلة العذبة هي من توفرت فيها شروط الطبع والرواية والذكاء، "إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز" (١٤).

فبعد أن استعرضنا بعض الأقوال والآراء حول هذه القضية، لننظر في رأي أبي حيان من خلال كتاب "الإمتاع والمؤانسة".

فمنذ الوهلة الأولى يضعنا التوحيدي أمام حقيقة ماثلة، يقف أمامها المتمرسون فضلا عن الكتاب والشعراء عاجزين، شاعرين بصعوبتها والإحاطة بأشكالها وصورها، وهو التعبير الفني -أو الكلام- الذي قد يسهل مرة ويعسر مرات أخرى "فإن الكلام صلف نياه لا يستجيب لكل إنسان، ولا يصحب كل لسان، وخطره كثير، ومتعاطيه مغرور، وله أرن (نشاط) كأرن المهر وإياء كإياء الحرون، وزهو كزهو الملك، وخفق كخفق البرق؛ وهو يتسهل مرة ويتعسر مرارا ويذل طورا ويعز أطوارا" (١٥).

وحين يعرض لقضية الطبع والصناعة يتحدث على لسان ابن المقفع (ت ١٤٢هـ) عن العرب بوصفها أمة عاقلة عن الأمم الأعجمية؛ لأنها اهتمت إلى مكارم الأخلاق، واستحدثت نمط معيشتها، وأساليب تعبيرها، وطرائق تفكيرها من وحي فطرتها، وطبيعتها البسيطة؛ لأنها باختصار أمة لم تكن تكتب فتستند إلى مفكرها أو تتكأ على موروثها الثقافي. "إن العرب ليس لها أول تؤمه ولا كتاب يدلها، أهل بلد فقر، ووحشة من الأوس، احتاج كل واحد منهم في وحدته إلى فكره ونظره وعقله؛ وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض فوسموا كل شيء بسمته، ونسبوه إلى جنسه، وعرفوا مصلحة ذلك في رطبه ويابسه، وأوقاته وأزمنته.." (١٦).

إن البيئة العربية الموسومة بالجذب وشح المعيشة، وانقطاع العربي في صحراء خالية مترامية الأطراف - بحر من الأهوال المتلاطمة، غير مأمونة الجانب لما تلقى في روعه من مشقة وترحال وعطش وأهوال، خلقت في نفسه هذا الأسلوب من الحياة القاسية، المتصبرة المتجلدة، المدثرة بقناع الفضائل والأخلاق العالية، المنجذبة إلى ساح الكلمة المشعة الشيقة، وتلك هي

عبقريّة العربي وتفردّه عن باقي الأمم الأخرى، "وللعرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان" (١٧).

وواضح في هذا انسياقه مع رأي الجاحظ، ودفاعه المستميت عن بلاغة العرب وخطاباتها المنقطعة النظير؛ ولأنهم بلغاء فصيحو الألسنة، فإنما يعود ذلك إلى فطرتهم وطبعهم المتأصل، فهم لم يقرءوا فيثأثروا، أو يكتبوا فيأخذوا، بل طبائعهم وعقولهم متأدبة عارفة، "كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ويستخرجه بفظنته وفكرته فلا يتعلمون ولا يتأدبون، بل نحائز مؤدبة، وعقول عارفة" (١٨).

وإن كان بيان العرب عن فطرة وطبيعة، فإن اطراد الأبحاث الفلسفية والمسائل المنطقية على الدرس الأدبي دخيلة عليه. ففي كتابه يورد نصا جدليا بين السيرافي ومتى بن يونس القنائي، حمل فيه أبو سعيد على منطقة العربية، الذين سعوا سعيا حثيثا من أجل منطقة النص العربي. "إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها، وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها - فمن أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم، ما شهد لهم به قبلوه، وما أنكره رفضوه؟" (١٩).

والإلهام حلقة أولى من سلسلة الإبداع، وهو كظل الإنسان تبعية وملزمة، ولكي يتحقق الهدف الأسمى من هذا الإلهام في إحداث الفعل والفعالية، وثمرتها العطاء الفني والفكري - يجب توفر شرطين أساسيين وهما: العلم والعمل؛ فالملهم برأيه أنواع فأحدهم ملهم فيتعلم ويعمل، "ويصير مبدأ للمقتبسين منه، المقتدين به، الآخذين عنه، الحاذين على مثاله، المارين على غراره، القافين على آثاره؛ وواحد يتعلم ولا يلهم فهو يماثل الأول في الدرجة الثانية، أعني التعلم؛ وواحد يتعلم ويلهم، فتجتمع له هاتان

الخلتان، فيصير بقليل ما يتعلم أكثر للعلم والعمل والعلم بقوة ما يلهم ويعود بكثرة ما يلهم مصفيا لكل ما يتعلم ويعمل" (٢٠).

وليس الإلهام إلا الاستعداد النفسي أو الباعث أو الخاطر وهو عند العرب استجابة لقرينتها الصافية، وعرقها الكريم وعاداتها السليمة. "والعرب قالت هذا بالإلهام، لقرائهم الصافية، وأذهانهم الواقة، وطينتهم الحرة، وأعراقهم الكريمة، وعاداتهم السليمة" (٢١).

ولهذا لو جمعت العرب إلى طبعها وفطرتها عقلا محصا وبحثا مستديما لكان لها الكمال والتميز فـ"العرب أذهب مع صفو العقل؛ ولذلك هم بذكر المحاسن أبده، ومن أصدادها أنزه. ولو كانت رويتهم في وزن بديتهم كان الكمال" (٢٢).

فالإلهام يلقي في روع الإنسان شأنه شأن الوحي، يخلقه خلقا ويحدث فيه لواجع وعواطف تتدفق كالمجاري للرقاقة بين الصخور ووسط التلال ويزيدها ثباتا واستمرارا حسن المنشأ والمنبت والتعهد بالحفظ والعناية والتعلم والاكتساب.

والبديهة أو الإلهام أو المطبوع أعلى مرتبة وأسمى منزلة من الروية، أو الفكر أو المصنوع، لأنها إلهية، أما المصنوع فهو بشري، وإن كان هذا لا يمنع امتزاجهما حتى يتحقق الإبداع الفني. ففي معرض حديثه عن علم العرب وبلاغتها قال: "هذا كله لهم بنوع إلهي لا بنوع بشري، كما أن هذا كله لغيرهم بنوع بشري لا بنوع إلهي، وأعني بالإلهي والبشري الطباعي والصناعي؛ على أن إلهي هؤلاء قد مازجه بشري هؤلاء، وبشري هؤلاء قد شابه إلهي هؤلاء" (٢٣).

وكثيرا ما نجد في كتابه تداخلا بين المشكلات الفلسفية المطردة كقضايا النفس والجسد والمادة والروح والحركة والسكون والجبر والاختيار والموت

والحياة والعقل والحس والحرية وغيرها من المسائل، واتصالها بالقضايا النقدية والأدبية واللغوية، وهذا ليس عجباً إذا علمنا أن التوحيدي ينطلق من فلسفة شمولية "تقوم على بعث هذه العلة أو تلك، وإحيائها، وتنظيمها وفق حاجات إنسانية ملحة في زمان ما، ومكان ما، وعلى هيئات متفاوتة في القرب والبعد أو الارتفاع والانخفاض، والشدة والرخاوة، والثبات والتغير، وما إلى ذلك" (٢٤).

ويرادف مفهوم الطبع — عند التوحيدي — الجبلة والسجية، فحينما يسأل: ما معنى السجية؟ يرد قائلاً: "سمعت الأندلسي يقول: فلان يمشي على سجيته، أي طبعه" (٢٥).

بل إن الطبع عمود الكتابة ومدارها، يستغني فيه الشاعر عن معرفة العروض والإلمام بعلم الأوزان الخليلية، وهذا ما يؤكد في قوله: "كما يستغني قارض الشعر بالطبع على علم العروض" (٢٦).

وانتقد الكاتب شخصية ابن عباد الأدبية لكونه لا يتحكم في التعبير الفني؛ فهو مرة مجيد بليغ، ومرة أخرى شاعر عيي، وهذا راجع لشروده عن الطبع وابتعاده عليه، يقول عنه: "هو مجنون الكلام، تارة تبدو لك منه بلاغة قس، وتارة يلفاك بعي بأقل؛ تحريف كثير في المعاني، وإحالة في الوضع، وغلط في السجع، وشروء عن الطبع" (٢٧).

والتوحيدي وإن كان يحبذ الطبع ويراه أساس كل بلاغة وقلم أدبي، فهو مع ذلك يرى أنه لا يمكن الاستغناء عن الصناعة، إذ يعرف العمل الفني بأنه "مركب من اللفظ اللغوي والصوغ الطباعي، والتأليف الصناعي، والاستعمال الاصطلاحي" (٢٨).

فكل عمل فني يشد القلوب ويخطف الألباب ويسرق الأضواء يتكئ على هذين المعيارين متكاملين متوازنين، والإخلال بأحد منهما، أو إعلاء

الواحد على الآخر لا شك سينقص من قيمة ذلك العمل ويقتل روحه، فيصبح قالبا بلا معنى، وهذان الأساسان: أساس فطري موهوب، وأساس جهدي مبذول.

ومن هنا فإن كانت البلاغة تهدف فيما تهدف إليه الإقحام والكشف والإيضاح والوصول إلى أذهان السامعين وقلوب المتعطشين بأسلوب فصيح بليغ، فإن التوحيدي يعدها صناعة قائمة بذاتها، شأنها شأن باقي الصناعات الأخرى تحتاج إلى الثقافة، والممارسة؛ كما أن الأديب لا يرقى إلى هذا الوصف ولا يوسم بهذا الاسم حتى يحيط بجميع ضروب العلم وأصناف المعارف، فيقرأ القرآن ويطلع على أخبار العرب وأيامها ونواذرها، وأشعارها وحكمها مع خط جميل، وأسلوب مشرق مطبوع "فعلى جميع الأحوال لا يكون الكاتب كاملا، ولا لاسمه مستحقا إلا بعد أن ينهض بهذه الأثقال، ويجمع إليها أصولا من الفقه مخلوطة بفروعها، وآيات من القرآن مضمومة إلى سعته فيها وأخبارا كثيرة مختلفة في فنون شتى لتكون عدة عند الحاجة إليها، مع الأمثال السائرة والأبيات النادرة، والفقر البديعة، والتجارب المعهودة، والمجالس المشهودة، مع خط كتبر مسبوك، ولفظ كوشي محوك، ولهذا عزّ الكامل في هذه الصناعة" (٢٩).

كما تعرض في كتابه مرارا لأثر البيئة في طبع الأديب وتوجهه الفني، فبيئة العراق مفتحة للمواهب وباعثة على الفطنة والجمال. وبغداد — إذ ذاك — عاصمة للثقافة ومركز إشعاع فكري وحضاري، لذلك تميز الجاحظ بأدبه الرفيع وأسلوبه البليغ، وسبق في ذلك ابن العميد الذي حاول مجاراته واقتفاء أثره؛ فأخفق في ذلك وفشل "ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلقى عند كل إنسان ولا تجتمع في صدر كل أحد: بالطبع

والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ؛ وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد، وسواها مغالِق قلما ينفك منها واحد" (٣٠).

والشعر الحلو هو المصطبغ بنكهة الطبع والقريحة الصافية، والبلاغة هي كذلك جمال لفظ ودقة طبع وحسن سبك، أما الألفاظ النابية المنفرة للأذواق والأسماع فهي مستكرهة "والمدار على اجتلاب الحلاوة المذوقة بالطبع، واجتناب النبوة الممجوجة بالسمع؛ والقريحة الصافية قد تكرر، والقريحة الكدرة قد تصفو وشرّ آفات البلاغة الاستكراه، وأنصح نصائحها الرضا بالعفو" (٣١).

ولذلك فليس من الغريب أن نجد أدبياً مطبوعاً، وكتائباً سلس العبارة وحسن السبك والصياغة يتخير كلامه ولا يكتب ما يشين مقداره -كابن المقفع- "كان ابن المقفع يقف قلمه كثيراً، فقليل له في ذلك، فقال: إن الكلام يزدهم في صدري فيقف قلمي لأتخير" (٣٢).

وهذا التخير والوقوف أثناء عملية الممارسة الإبداعية الأدبية، قد خلقت لكل أديب أسلوبه وطريقته، ولعل أسلوب الجاحظ وكتابته المميزة في ذلك العصر دفعت الأدباء إلى الحرص على انتقاء الكلمات والألفاظ الجيدة واختيار العبارات الملائمة والمعاني الهادفة؛ بل إن شوقهم لترسم خطاه واتباع منهجه الشائع في ذلك الوقت، قد جعل عدداً منهم يخفق، وتضحّت سرقة وسوء تأنيه كما هو الأمر بالنسبة إلى ذي الكفائتين نجل ابن العميد" ولقد تشبه بالجاحظ فافتضح في مكاتبته لإخوانه، ومجانبته في كلامه ومسائله لمعلمه التي دلتنا على سرقة وغارته وسوء تأنيه" (٣٣).

كما أن الكاتب والأدباء يقرون ببلاغة جعفر بن يحيى البرمكي، وبديع كتابته المفضلة عند أصحاب الدواوين والكتاب، ولنلاحظ أثر البيئة البغدادية على فصاحته السحبانية: "قال أصحابنا: ما نظن أنه اجتمع هذا كله

إلا لجعفر بن يحيى فإن كتابته كانت سوادية، وبلاغته سحباتية، وسياسته يونانية، وآدابه عربية، وشمائله عراقية^(٣٤).

إن مبدأ الطبع ضرورة لا مناص منها، وعليها يقوم الإبداع الفني، وهو الموجه والمسير في التعبير الأدبي.

والتوحيدي كما أشرنا آنفا يعد الإلهام طبعا وبالتالي فهو إلهي طبيعي، ولكي تنمو قريحة الكاتب وتتجدد، وتتسع مداركه، وتتحدد رؤاه وأخيلته، وتتطور تصورات وأشكاله التعبيرية، فهو محتاج إلى العقل البشري الذي هو هبة من الله، وثمرة الدراسة والمطالعة والخبرة والمناقشة والممارسة، وبالتالي فهو بشري صناعي.

ولهذا حاول التوحيدي التوفيق بين المطبوع والمصنوع، وإن كان جليا للعيان أن المطبوع أعلى لأنه إلهي، والمصنوع أدنى لأنه بشري. والقوة البشرية لا سبيل إلى مقارنتها أو مساواتها بالقوة الإلهية بأي حال من الأحوال.

والشعر كذلك صنعة كباقي الصناعات، يحتاج إضافة إلى الطبع أو الإلهام إلى الصقل وإلمام بعلم العروض والوزن "وليس كذلك المنظوم لأنه صناعي، ألا ترى أنه داخل في حصار العروض وأسر الوزن وقيد التأليف، مع توقي الكسر، واحتمال أصناف الزحاف"^(٣٥).

وتجدر الإشارة إلى أن التوحيدي لم يشذ في هذه المسألة عن النقد القدامى والمعاصرين، إذ يرى معظمهم أن الأبدان الأدبي ينبنى من شائيتين مهمتين هما: المطبوع والمصنوع، وأن أي تركيز على جهة دون الأخرى، معناها بتر لكيان النص وتشويه لروحه.

فالجاحظ مثلا يرى أن الطبع الأصيل واللفظة الجميلة والمعنى الشريف إذا وشح بها أي نص أدبي، فعل في القلوب صنيع المطر المنهمر

على الأرض الكريمة. "فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً من الاستكراه، ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة" (٣٦).

الأمر نفسه بالنسبة إلى التوحيدي، فأساس كل تعبير فني الإلهام أو الاستعداد النفسي أو الخاطر أو الطبع دون الاستغناء عن العقل والذكاء والدربة.

مما مضى نستخلص بعض الملاحظات التي تعد — من أساسيات نقد التوحيدي — نجملها فيما يلي:

- طبع التوحيدي أدبه عموماً، وقراءاته النقدية باهتماماته الفلسفية، لذا فإن نقده، ومنه مسألة الطبع والصناعة تتبنيان على "الحس والعقل" إذ "تشكل ثنائية العقل والحس الأساس الأول والأهم الذي بنى عليه التوحيدي أفكاره الفلسفية بعامة، والأدبية بخاصة. إن منطلقاته الفلسفية والمنطقية أعلت كثيراً من قيمة العقل، وحطت من قيمة الحس" (٣٧).

- اهتمامه بالعقل لأنه هبة الله تعالى للبشرية، ومصباحها الهادي في دياجير الشك والحيرة، والمفتاح الذي به تشرع الأبواب "الإنسان بين طبيعته — وهي عليه — ونفسه — وهي له — منقسم؛ فإن اقتبس من العقل قوى نوره ما هو له من النفس، وأضعف ما هو عليه من الطبيعة، فإن لم يكن يقتبس بقي حيران أو متهوراً" (٣٨).

- دراسة التوحيدي على يد أدباء وعلماء أفذاذ كان لها أثرها البعيد في نقده، والواقع أنه كثيراً ما يورد مقولات لهم، كأبي عابد الكرخي والعروضي والأنصاري والسيرافي وأبي سليمان المنطقي، ولهذا الأخير أثره الكبير والقوي على آرائه الأدبية وغيرها، إذ يتبعه في

الكثير من المسائل التي يوردها عنه ويثبتها كما هي دون نقد أو
تمحيص .

- إشدته بالبيئة البغدادية وهذا لشدة حبه لها، لذلك أعظم بغداد وطيب
هوائها وتأنق أهلها وإبداع إنسانها.

نختم القول إن التوحيدي لم يبخل باجتهاداته النقدية من بينها قضية "
الطبع والصناعة"، فقد ألح على الشعر والأدب المطبوع، لأنه يمس شغاف
القلب، ويحرك وجدان السامع، ويترك أثره الذي لا يمحي من القلب أو
الذاكرة. وليس عيباً في أن يجتهد الأديب ويبحث وينقب لكن من دون إسراف
أو تكلف ينبو عن الإحساس النقيق أو الكلمة المشرقة أو المعنى المعبر.

الهوامش:

(١) إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن
الثامن الهجري)، دار الثقافة، ط٤، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣، بيروت، ص: ٢٢٨.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأديباء، ج ١٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص: ٥.

(٣) جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار المعرفة، بيروت،
ص: ٣٤٨.

(٤) زكي مبارك: النثر الفني في القرن ٤ هـ، ج ٢، المكتبة العصرية، صيدا (بيروت)،
ص: ١٦٢.

(٥) ياقوت الحموي: معجم الأديباء، ج ١٥، ص: ١٣.

(٦) نفسه، ج ١٥، ص: ١٩.

(٧) انظر: نفسه، ج ١٥، ص ٧-٨.

(٨) انظر: إبراهيم الكيلاني، أبو حيان التوحيدي، دار المعارف، ط٢، مصر، ص: ٣٧.

(٩) مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٢
، بيروت، ص: ٣٧٣.

(١٠) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تح: أحمد أمين - أحمد الزين، ج ١،

منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص: ١٣.

- (١١) مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب، ص: ٣٧٣
- (١٢) أبو هلال العسكري، الصناعتين في الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦، صيدا (بيروت)، ص: ١٣٤-١٣٥.
- (١٣) الجاحظ، البيان والتبيين، تح: علي أبو ملح، ج ٣، دار ومكتبة الهلال، ط ١، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨، بيروت، ص: ٢٠.
- (١٤) القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبئ وخصومه، تح: محمد أبو الفضل - علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا (بيروت)، ص: ١٥.
- (١٥) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج ١، ص: ٩.
- (١٦) نفسه، ج ١، ص: ٧٢.
- (١٧) نفسه، ج ١، ص: ٧٤.
- (١٨) نفسه، ج ١، ص: ٧٢.
- (١٩) نفسه، ج ١، ص: ١١٠.
- (٢٠) نفسه، ج ١، ص: ١٤٥ - ١٤٦.
- (٢١) نفسه، ج ١، ص: ٩٤.
- (٢٢) نفسه، ج ١، ص: ٨٨.
- (٢٣) نفسه، ج ١، ص: ٨٩.
- (٢٤) عبد القادر الرباعي، التفكير النقدي في كتاب المقابسات، مجلة فصول "أبو حيان التوحيدي"، ع ١، مج ١٥، ج ٣، ١٩٩٦، الهيئة المصرية للكتاب، ص: ١٤٦.
- (٢٥) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج ١، ص: ٢٢٠.
- (٢٦) نفسه، ج ١، ص: ١٠٧.
- (٢٧) نفسه، ج ١، ص: ٦١.
- (٢٨) نفسه، ج ١، ص: ٩.
- (٢٩) نفسه، ج ١، ص: ٩٩ - ١٠٠.
- (٣٠) نفسه، ج ١، ص: ٦٦.
- (٣١) نفسه، ج ١، ص: ٦٥.
- (٣٢) نفسه، ج ١، ص: ٦٥.

-
- (٣٣) نفسه، ج ١، ص: ٦٦
 (٣٤) نفسه، ج ١، ص: ١٠٠
 (٣٥) نفسه، ج ٢، ص: ١٣٣
 (٣٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص: ٨٧
 (٣٧) عبد القادر الرباعي، التفكير النقدي في كتاب المقابسات للتوحيدي، مجلة فصول ،
 ع ١، ص: ١٢٤
 (٣٨) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص: ٤٣